﴿لَوۡ يَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمۡ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ٣٩﴾ [الأنبياء:39]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

نَفْيُ العِلْمِ عَنِ الكُفّارِ في الحالِ والمآلِ

لمّا غالى الكُفّار في السُّخرية والاستهزاءِ فيما تقدَّمَ، وكان ذلكَ دليلًا على أبلغِ الجَهْلِ المُسْتَحْكِم؛ استأنَفَ اللّهُ تعالى الجوابَ عَن كلامِهم في هذه الآيةِ بِنَفْيِ العِلْمِ عَنْهُم في الحالِ والمآلِ عَلى طريقِ التَّهَكُّمِ بِهِم، فقالَ سُبْحانَهُ: ﴿لَوۡ يَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمۡ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ﴾[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَكُفُّونَ﴾: (كفّ) تدلُّ تَصْريفاتُها عَلى قَبْضٍ وانْقِباضٍ، ومِنْ ذَلِكَ: كَفُّ الإنْسانِ، وتَثْنِيَتُها: كَفّانِ، وسُمِّيَتِ الكَفُّ كَفًّا؛ لأنَّها تَقْبِضُ الشَّيْءَ[2]، وحَقيقَةُ الكَفِّ عِنْدَ الإنْسانِ: الرّاحةُ مَعَ الأصابِعِ[3].

ومِمّا يَرْجِعُ إلى أصْلِ القَبْضِ قولُهُم: رجُلٌ مَكْفوفٌ؛ لِمَن قُبِضَ بَصَرُه، وقوله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ﴾ [سبأ:28] أي: كافًّا لَهُم عنِ المعاصي، والهاءُ فيه للمُبالغةِ، وهذا في أحدِ القولين[4]، ويُطْلَقُ الكفُّ على المَنْعِ والصَّرْفِ، ومِنهُ قولهم: كَفَّ الرَّجلَ عنِ الأمرِ وكَفْكَفَه؛ أي: مَنَعَه وصَرَفَه، ومِنْهُ قول الله تعالى: ﴿لَوۡ يَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ﴾ أي: لا يَمنَعونَ ولا يَصْرِفون ولا يَدْرَؤونَ[5].

(1) البقاعي، نظم الدُّرَر: 12/ 421.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كف).
(3) الأزهري، تهذيب اللغة: (كف).
(4) الراغب، مفردات ألفاظ القرآن الكريم: (كف).
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 71.

2) ﴿يُنصَرُونَ﴾: (نصر) تَدورُ مادَّتُها حول مَعْنى إتيانِ خيرٍ وإيتائِه بما فيه زيادةٌ مناسِبةٌ وقُوَّةٌ، ولازِمُهُ: دَفْعُ الضُّرِّ[1]، ومِنْهُ سمّيَ المَطرُ نصرًا[2]، والنَّصْرُ على العَدُوِّ: إعانَةُ الخصم عليه في حَرْبٍ أو غيرها؛ بقُوَّةِ النّاصِرِ وغَلَبَتِه[3].

وقولُ اللّه تعالى: ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ بمعنَى: لا يُدفع عَنْهُمُ المَكْرُوهُ.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

خُلُوُّ الكُفّارِ مِنَ العِلْمِ يجعَلُهُم لا يُـدْرِكـونَ العَواقِبَ

في هذه الآيةِ يُبَيِّن اللّهُ تَعالى جَهْلَ الكُفّار بقولِه: ﴿لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ المُسْتَعْجلينَ عذابَ ربِّهم ماذا يكونُ لَهُم مِنَ البلاءِ حينَ تَلْفَحُ وجوهَهُم النّارُ، وتحيط بهم مِنْ كُلِّ جانبٍ؛ فلا يَقْدِرونَ عَلى دَفْعِها عَن وُجوهِهِم، ولا عَن ظُهورِهِم، ولا يجدون لَهُم ناصِرًا يَنْصُرُهم، فيَسْتَنْقِذُهُم حينئذٍ مِنْ عذابِ اللّه سُبْحانَه؛ لو يَعْلمون هذا لَما أقاموا على ما هُم عليه مِنَ الكُفْرِ باللّه ﷻ، ولَسارَعوا إلى التَّوْبَةِ مِنْهُ والإيمانِ باللّه تَعالى، ولَما اسْتَعْجَلوا لأَنْفُسِهم البلاءَ[4].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

عِلَّةُ فصْلِ الجُملَةِ عَمّا قَبْلَها:

الـجـوابُ عَـمّـا يـدورُ بِـخَـواطِـرِ أهلِ الإيمانِ

فُصِل قولُ اللّه ﷻ: ﴿لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ﴾ عمّا قبله - ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ - لكونه استئنافًا بيانيًّا، فبين الجملتين شبهُ كمال الاتِّصال، وذلك أنَّ الجملة الثّانية واردةٌ جوابًا عن سؤال يُفهم من التي قبلها؛ إذْ إنَّ قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ يُثير في

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (نصر)، والبيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 1/ 79، ومحمّد حسن جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصَّل: (نصر).
(2) الزَّمخشريّ، أساس البلاغة: (نصر).
(3) الفيُّوميّ، المصباح المنير: (نصر)، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/ 486.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 445، ونخبة من أساتذة التفسير، التَّفسير الميسّر، ص: 325.

نفوس أهل الإيمان سؤالًا وهو: ماذا يكون جوابهم عن استهزائهم وتهكُّمهم؟ فجاء الجواب: ﴿لَوۡ يَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمۡ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ﴾[1].

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بِـ ﴿لَوۡ﴾:

الاسْتِمرارُ عَلى طَريقِ الضَّلالَةِ مانِعٌ مِنْ تَحْصيلِ العِلْمِ النّافِعِ

عُلِّقَ الشَّرْطُ بـ ﴿لَوۡ﴾ في قولِ اللّه سُبحانه: ﴿لَوۡ يَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ﴾؛ للإشارَةِ إلى أنَّهم لا يَعْلَمونَ ذَلك ولَن يَعْلَموهُ ما داموا سالِكين طريقَ الاسْتِهْزاءِ والضَّلالة؛ وذلكَ لأنَّ الأصلَ في اسْتِعْمالِ (لَو) أن تَكون لِما يُقْطَعُ بِانْتِفائِه، وأنَّ عِلْمَهُم بذلك يكونُ حينَ يقَعُ العذابُ عليهِم في نارِ جهنَّم، فيكونُ حينئذٍ عينَ اليَقين.

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بِالفِعْلِ المُضارِعِ ﴿يَعۡلَمُ﴾:

تَصْويرُ حالِ الكُفّارِ عِنْدَ مُعايَنَةِ العَذابِ

عُبِّر عنِ العِلْمِ بالفِعْلِ المُضارِعِ ﴿يَعۡلَمُ﴾ مِن قولِ اللّه ﷻ: ﴿لَوۡ يَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ﴾، ولَم يُعَبَّر بالماضي (لو عَلِم)، وإن كان في مَعْنى المُضيِّ؛ للدّلالةِ عَلى اسْتِمرارِ عدَمِ عِلْمِهِم، وذلكَ لأنَّ الفعل المُضارِعَ الواقِعَ مَوْقِعَ الفِعْلِ الماضي ليسَ نَصًّا في الدّلالة على انْتِفاءِ اسْتِمرارِ الفِعْلِ، بَل يُفيدُ استمرارَ انتفائه أيْضًا بحسَبِ المَقام، كَما في قولكَ: لو تُحسن إلَيَّ؛ لَشَكَرْتُكَ، فإنَّ معناهُ أنَّ الشُّكْرَ انْتَفى لاسْتِمرارِ انتفاءِ الإحْسانِ، لا لانْتِفاءِ اسْتِمرارِ الإحْسانِ، ففَرْقٌ بينَ اسْتِمرارِ الانتفاءِ وبينَ انْتِفاءِ الاسْتِمرارِ[2].

وفي التَّعبيرِ بالفِعْلِ المُضارع ﴿يَعۡلَمُ﴾ أيضًا تصويرٌ لحالِهم عندَ مُعايَنَتِهِمُ العذابَ الشَّديد ونزولِه بِهِم[3].

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 67، والبقاعي، نظم الدُّرَر: 12/ 421، وابن عاشور: 17/ 70.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 67، والبقاعي، نظم الدُّرَر: 12/ 421، والآلوسي، روح المعاني: 9/ 48.
(3) محمد أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4866.

دِلالة التَّعبير بالعِلْم:

العِلْمُ العِلْمُ الحَقُّ عَاصِمٌ مِنَ الانْحِرافِ في قولِ اللهِ تَعالى: ﴿لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ﴾ بِمَعْنى المَعرفةِ، فيتعدَّى الفِعْلُ لمفعولٍ واحدٍ فقط، والمعنى: لو يَعْرِفونَ حينَ حُلولِ العذابِ بِهِم وما فيه مِنَ الفَظائِعِ والعَظائم؛ لَما اسْتَهْزَؤوا به واسْتَعْجَلوه[1].

واسْتَظْهَرَ أبو حَيّان أنَّ مفعولَ ﴿يَعْلَمُ﴾ مَحذوفٌ، والتَّقديرُ: (لَو يَعْلَمُ الذين كَفروا مجيءَ المَوْعودِ الذي اسْتَعْجَلوهُ حينَ لا يكُفّون عن وُجوهِهِم النّار؛ لَما كَفروا واسْتَعْجَلوا واسْتَخَفّوا)[2].

وفي التَّعبيرِ به دِلالَةٌ على جَهْلِهِم وعدَمِ إدْراكِهِم عواقبَ قَوْلِهِم: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

بَلاغَةُ تَنْزيلِ الفِعْلِ المُتَعَدّي مَنْزِلَةَ اللّازِمِ:

المُبالَغَةُ في نَفْيِ العِلْمِ عَنِ الكُفّارِ إثْباتُ لجَهْلِهِم جوَّز بعضُ أهلِ العلم بالتَّفسيرِ أن يكونَ فِعْلُ العِلْمِ متعدّيًا في الأصلِ إلى مَفْعولَيْن، ولكنَّه - في قولِ اللهِ تَعالى: ﴿لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ﴾ - نُزِّلَ مَنْزِلَةَ اللّازِمِ، فلا يكونُ واقعًا عَلى مفعولٍ به أصْلًا، والمَعْنى: لَو كانَ لَهُم عِلْمٌ ولَم يكونوا جاهِلين؛ لَما اسْتَعْجَلوا العذابَ واسْتَخَفّوا به[3]، وهذا أبلغُ في نَفْيِ العِلْمِ عَنْهُم وإثباتِ ضِدِّه لَهُم.

بَلاغَةُ التَّعبيرِ بِاسْمِ المَوْصولِ دونَ الضَّميرِ:

الكُفْرُ باللهِ تَعالى سَبَبُ شِدَّةِ الهَوانِ في الآخِرَةِ عُبِّر بالموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ في قولِ اللهِ تعالى: ﴿لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ﴾ دون ذِكْرِ ضَميرِهم، فلَم يَرِدِ النَّظْمُ القُرآنيُّ: (لَو يَعْلَمونَ حينَ لا يَكُفّون)؛ للتَّنبيه بِما في حيِّز الصِّلة على علَّة اسْتِحقاقهم العذاب[4]، وللدّلالةِ

(1) الشنقيطي، أضواء البيان: 4/ 151 - 152.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 7/ 432.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 68، والشنقيطي، أضواء البيان: 4/ 151 - 152.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 67، والآلوسي، روح المعاني: 9/ 48.

عَلى أنَّ الذين اسْتَعْجَلوا العذابَ هُمُ الكُفّار، وللإشارَةِ إلى أنَّ الكُفْرَ سببُ ذلكَ الهوانِ العظيمِ الذين يَؤولُ إليه أمرُهُم في الآخِرَة[1].

عِلَّةُ إيرادِ الاسمِ المَوْصولِ جَمعًا:

كَـثْـرَةُ أهلِ الكُفرِ مَـعَ اخْـتِـلافِ مَشارِبِ كُفْرِهِم

إيرادُ الاسمِ الموصول جَمعًا في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾؛ فيه إشْعارٌ بِكَثْرَةِ أهلِ الكُفْرِ، ولأنَّ للكُفْرِ صُوَرًا متعدِّدةً، كُلُّ نوعٍ مِن أنواعِه يندرِجُ تحتَه أفرادٌ كثيرُونَ، ولا سيما إذا حُمِلَ التَّعبيرُ على الذين كَفَروا مَعَ الأقوامِ السّابقة أيضًا.

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بِالفِعْلِ الماضي ﴿كَفَرُواْ﴾:

تَـحَـقُّـقُ وصْـفِ الـكُـفْـرِ مـوجِـبٌ الـعَـذابَ في الآخِرَةِ

جيءَ بصِلةِ المَوْصولِ فعلًا ماضيًا ﴿كَفَرُواْ﴾ مِنْ قولِه سُبْحانَهُ: ﴿لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ﴾؛ للدِّلالَةِ علَى تحقُّقِ وصْفِ الكُفْرِ فيهم وتَمَكُّنِه في قُلوبِهم؛ لدرجَةِ أنَّهم فقدوا الحقيقةَ التي يَنْبَغي البَحْث عنها، وطَلبوا استعجالَ العذابِ.

دِلالَةُ حَذْفِ مُتَعَلَّقِ فِعْلِ الكُفْرِ:

كُفْرهم بجَميعِ ما أوْجَـبَ اللهُ تَعالى الإيمانَ بِهِ

حُذِفَ متعلَّقُ الفعلِ ﴿كَفَرُواْ﴾ مِن قولِ اللهِ سُبحانَهُ: ﴿لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ﴾ وهُو المَكْفورُ بِهِ؛ لإرادَةِ العُموم؛ وذَلِكَ لِأنَّ حَذْفَ المَعْمولِ مؤذِنٌ بذَلِكَ، والمَعْنى: كفَروا بِجَميعِ ما يَجِبُ أن يُؤْمِنوا بِه شَرْعًا.

دِلالَةُ حَذْفِ جَوابِ ﴿لَوْ﴾:

تَعْظيمُ العَذابِ وتَهْويلُهُ

حُذِفَ جوابُ ﴿لَوْ﴾ في قول اللهِ تَعالى: ﴿لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ لإرادة التَّهويل والتَّعظيم، ولتَذْهَبَ النَّفس فيه كُلَّ مذهبٍ، والتَّقدير: (لَرَأوا هولًا لَم يُدْرِكوا كُنْهَهُ ولَم يعرفوا أمرَهُ)، وفيه إشارة إلى أنَّ الكلماتِ لا تفي ببيانِ هَذا الهَوْلِ[2].

(1) محمد أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4866.
(2) محمد أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4866.

عِلَّةُ فصلِ جُملَةِ ﴿حِينَ لَا يَكُفُّونَ﴾:

تَقْرِيرُ جَهْلِ الكُفّارِ وبَيانُ اسْتِمرارِهِم عليه

فُصِل قولُ الله تعالى: ﴿حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ﴾؛ لكونه استئنافًا نحويًّا، فلا يُقدَّر سؤالٌ قَبْلَهُ، وهذا الاستئنافُ يُراد به تقريرُ جَهْلِهم وبيانُ استمرارِهم عليه إلى ذلكَ الحينِ، والمَعْنى: حينَ يَرَوْنَ ما يَرَوْن؛ يَعْلَمون حقيقةَ الحالِ[1].

واختارَ الطّيبيُّ أن يكون استئنافًا بيانيًّا، فتكون الجُملَةُ ناشئَةً عَن سُؤال مقدَّرٍ، وذلك لأنَّ الله سبحانه لَمّا نَفى عَنْهُمُ العلمَ في قولِه: ﴿لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾؛ أورَثَ ذلكَ سُؤالًا في نفسِ المُتلقّي وهُو: حينَ لَم يَحْصُل لَهُم علمٌ الآن، فمَتى يَحْصُل؟ فجاءَ الجوابُ: يَعْلَمون ذلك حينَ لا يَنْفَعُهم العلمُ، وهو وقتُ حُلولِ عذابِ النّار بِهم[2].

واسْتَظْهَر الآلوسيُّ أن يكونَ لَفْظُ ﴿حِينَ﴾ مفعولًا به لـ ﴿يَعْلَمُ﴾[3]، والتَّقديرُ: (لَو يعلمونَ ذلك الوقت)، ولا يَصِحُّ أن يكونَ ظَرْفًا؛ لأنَّهم قَد عَلِموا العذابَ وذاقوهُ.

دِلالَةُ إضافَةِ ﴿حِينَ﴾ إلى الجُملَةِ:

الإعْلامُ بِظُهورِ عَذابِ الكُفّارِ في الآخِرَةِ

أُضيف ﴿حِينَ﴾ إلى الجُملة في قولِ الله تعالى: ﴿حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ﴾، وهي جُملَةٌ جاريَةٌ مَجْرى الصِّفة التي حَقُّها أن تَكونَ معلومةَ الانْتِسابِ إلى المَوْصوفِ عندَ المُخاطَب، والواقِعُ أنَّ الكُفّارَ يُنْكِرونَ ذَلِكَ، والنُّكْتَةُ في ذلك الإعلامُ بأنَّه مِنَ الوُضوحِ والظُّهور بحَيْثُ لا حاجَةَ لَهُ إلى الإخْبارِ بِهِ، وإنَّما حقُّهُ أن يَنْتَظِمَ في سِلْكِ ما هُو مُسَلَّمٌ مَفْروغٌ مِنْهُ[4].

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 68.
(2) الطيبي، فتوح الغيب: 10/ 349.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 48.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 68.

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بِالضَّميرِ في ﴿يَكُفُّونَ﴾:

تَـكـامُـلُ المَعـاني المُختَمَلَةِ لِلقُرْآنِ الكَريمِ

جاءَ التَّعبير بالضَّمير في قوله تَعالى: ﴿يَكُفُّونَ﴾ من قولِ اللّه سُبْحانَهُ: ﴿لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ﴾؛ لتعدُّد المراد به[1]، فيَجوزُ أن يكونَ الضَّمير عائدًا إلى ملائكَةِ العَذاب مع عَدَم سَبْقِ ذِكْرِهم، إلّا أنَّه معلومٌ مِنَ المَقام، والكفُّ على هَذا بِمَعْنى الإمساك، والمَعْنى: حينَ لا يُمسِكُ الملائِكَةُ اللَّفْحَ بِالنّار عن وجوه الكافِرين، وتكون هذه الآية في مَعْنى قولِ اللّه تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾﴾ [الأنفال:50].

ويجوز أن يكونَ الضَّميرُ راجعًا إلى الكُفّار المَذْكورين في الصِّلة - ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ - ، والكَفُّ على هذا الوجْه بِمَعْنى الدَّرء والدَّفع، والمَعْنى: حينَ لا يستطيع الكُفّار دفعَ النّار عن وُجوههم بأيديهم ولا عن ظُهورِهم.

وهذا الوجْهُ أظهرُ؛ لِعَوْدِ الضَّمير على مذكورٍ، وهو قولُ أكْثَرِ أهلِ العِلْم بالتَّفسير.

بَلاغَةُ المَجازِ المُرْسَلِ في ﴿يَكُفُّونَ﴾:

بَـيـانُ عَـدَمِ اسْتِطاعَتِهِم دَفْعَ العَذابِ عَنْ أنْفُسِهِم

على القَوْلِ بِعَوْدِ الضَّمير في ﴿يَكُفُّونَ﴾ من قولِ اللّه ﷻ: ﴿لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ﴾ إلى الكُفّار أنْفُسِهِم؛ فيكونُ الكَفُّ بِمَعْنى الدَّرْءِ والسَّتْر، وذلكَ مجازٌ بعلاقَةِ اللُّزوم، والمُراد: نفي الاستِطاعَة، فالمَعْنى: لا يَسْتَطيعون دفعَ النّار عن وُجوهِهم بأيْديهِم ولا عَن ظُهورِهِم، فأُطْلِقَ اللّازِمُ وهُو عدمُ الكَفِّ بمَعْنى عدم الدَّرء، وأُريدَ المَلْزوم وهُو عدَمُ الاسْتِطاعَةِ، عَلى طَريقَةِ المَجاز المُرْسَل بِعلاقَةِ اللّازميَّة[2].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 70 - 71.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 71.

سِرُّ التَّعْبيرِ بِـ ﴿يَكُفُّونَ﴾ دونَ غَيْرِهِ:

تَـضـويـرُ حـالِ عَـجْزِ الكَـفَرَةِ في الآخِرَةِ

آثَر القرآنُ الكريمُ التَّعبير بالكَفِّ دون غَيْرِه؛ لأنَّ الكفَّ هنا أبلَغُ مِن المَنْعِ؛ حيثُ يُعَبَّر به عَنِ الدَّفع مُطْلقًا على أيِّ وجهٍ كان؛ لأنَّ أصل الكفِّ الانقباضُ والتَّجمُّع، ومنهُ سُمّيت الكفُّ كفًّا لأنَّها تقبِضُ على الأشياءِ، وعلى هذا فالكفُّ عن الفعلِ هُو الامتناعُ عنْ موالاة الفعلِ وإيجاده حالًا بعدَ حالٍ، ولذلكَ استخدمَهُ القرآنُ في دفعِ الأعداءِ مِن أهل الكتابِ ومِن غيرهم عن رسولِ اللّه ﷺ في قوله: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾﴾ [البقرة:137]؛ لأنَّ عداوةَ أهل الكتاب والكفّار متوالية ومتجَدِّدة حالًا بعد حالٍ، فناسبَ لذلك التَّعبير بالكفِّ؛ واسْتَخْدَمه أيضًا في كفايةِ اللّه بَعَبْده؛ بخِلاف المنعِ، فهُو أخَفُّ درجَةً مِنَ الكفِّ؛ لذلك يُطْلَقُ عَلى ما يتعَذَّر لأجله الفِعْلُ على القادرِ.

وفي التَّعبيرِ بالكَفِّ تصويرٌ لحالِ العَجْزِ التي تُصيبُهُم عِنْدَما يَرْفَعون أكُفَّهم حَوْلَ وُجوهِهم لدَفْعِ العذابِ، ولَكِنَّهم لا يَسْتَطيعون[1].

سِرُّ تَخْصيصِ الوُجوه والظُّهورِ بِالذِّكْرِ:

إحـاطَـةُ الـنّـارِ بِجَميعِ أجْسادِ الكُفّارِ

خُصَّت الوجوهُ والظُّهور بالذِّكْرِ في قولِ اللّه سُبحانه: ﴿حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ﴾؛ لكون الوُجوه أشرفَ ما في الإنسانِ ومستقرَّ حواسِّه، ولِكَوْنِ الظُّهور أشدَّ ما في الجَسدِ[2].

وفي التَّنصيص عَلى الوُجوه والظُّهور معًا إشارَةٌ إلى القُدّام والخَلْف، ففي ذَلِكَ تَنْبيهٌ عَلى عُموم إحاطَةِ النّار بِجَميعِ أجْسادِهِم بحَيْثُ لا يَقْدِرون على دَفْعِها بأنفُسِهم عَن جانبٍ مِن جَوانبِهِم[3].

وفيه إشارَةٌ إلى شدَّةِ عَجْزِهم؛ فإذا عَجَزوا عَنِ الدَّفع عنِ الوُجوه والظُّهور؛ فالعَجْزُ عَن غَيْرِها مِن بابٍ أوْلى، ولأنَّ الظُّهور يأنَفُ

(1) أبو هلال العسكري، الفروق اللغوية، ص: 128.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 83، وأبو حيان، البحر المحيط: 7/ 432، والبقاعي، نظم الدُّرَر: 12/ 422.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 68.

النّاس مِن ضَرْبِها لِما فيها مِنَ الإهانَةِ والخِزْيِ، فالمُراد بالظُّهور هُنا الأدبار، ويُؤَكِّد هذا أنَّ القرآن الكريم في مقام الحَرْبِ نَهى عن تولية الأدبار في قولِه: ﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ۝١٥﴾ [الأنفال:15].

نُكْتَةُ تَقْديمِ الوُجوه عَلى الظُّهورِ:

الـوَجْـهُ أشْـرَفُ أعْضاءِ الإنْسانِ

قُدِّم ذِكْرُ الوجوه عَلى الظُّهور في قولِ اللّه تَعالى: ﴿حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ﴾؛ لكَوْن الوجه أشرفَ الأعْضاء، ولأنَّ الإنسانَ أحرَصُ على الدَّفع عَنْهُ مِن غيرِه مِن سائرِ أعضائِه، فإذا عَجَز عَنِ الدَّفع عنه، فهُو عَن سِواه أعْجَزُ[1].

سِرُّ اخْتِلافِ التَّعْبيرِ بَيْنَ هذِه الآيَةِ وآيَةِ العَنْكَبوتِ:

دِقَّـــةُ الـنَّـظْـم القُرآنيِّ في انْتِقاءِ الأَلْفاظِ المُلائِمَة لِمَقاماتِها

النّاظرُ في موضِعِ آيةِ الأنبياءِ يَجِدُ أنَّها ذكَرَت الوجوهَ والظُّهور في قولِه: ﴿حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ﴾، بينَما في موضِعِ سورةِ العَنْكَبوتِ ذكَر أنَّ العذابَ يَغْشاهُم مِن فوْقِهم ومِن تَحْتِ أرجُلِهم، قال اللّهُ تعالى: ﴿يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ [العنكبوت:55] الآية.

وسِرُّ ذلك أنَّ موضِعَ الأنبياءِ تَقَدَّمه قولُه: ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ﴾، فذُكِر فِعْلُ الرُّؤية في قولِه: ﴿وَإِذَا رَءَاكَ﴾، واستقبالُ المَرْءِ يكونُ بالوُجوه، وذلكَ عَن طريقِ العَيْن، وهيَ في الوَجْه.

وقولُه: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ﴾ يصدُرُ مِنَ الكُفّار عندَ مُلاقاةِ الرَّسول بوجوهِهم أو عندَ إدْبارِه عَنْهُم، والإدبارُ هُو تَوْليَةُ الظَّهر؛ لذَلِكَ ذَكَر القرآنُ وُجوهَهُم وظُهورَهُم في موضِعِ الأنبياءِ، أمّا في العَنْكبوتِ؛ فقد تقدَّمَهُ قولُه تعالى: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ۝٤٩﴾ [التوبة: 49] والإحاطة عامّة تشمل كُلَّ الجوانبِ، ومِن هذه الجوانبِ: الفوقيَّة والتَّحتيَّة، فناسَبَ كُلُّ موضِعٍ ما ورَدَ فيه.

(1) القاسمي، محاسن التأويل: 7/ 195.

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بِالضَّميرِ ﴿هُمْ﴾:

تَـأْكِـيـدُ نَـفْـيِ حُـصـولِ النَّـصْـرِ لِلكَفَرَةِ

جيءَ بالضَّمير ﴿هُمْ﴾ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾، وكان يجوز أن يَرِدَ النَّظم القرآنيُّ: (ولا يُنصرون)، ولكن جيء بالضَّمير لِزيادة التَّعيين، ولتأكيدِ نَفْيِ حُصول النَّصْرِ لَهُم.

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بِالفِعْلِ المُضارِعِ ﴿يُنصَرُونَ﴾:

دَوامُ انْـتِـفـاءِ النَّصْرِ لِلكُفّارِ

عُبِّر بالفعْلِ المُضارع ﴿يُنصَرُونَ﴾ مِن قولِ اللّه سُبحانه: ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾؛ لإفادَةِ الدَّوام والاسْتِمرار، والمَعْنى: لا يَتَجَدَّد لَهُم نَصْرٌ، لا ظاهِرًا ولا باطِنًا[1]، فليسَ المقصودُ انْتِفاءَ دوامِ النَّصْرِ وإن كانَ يَحْصُل لَهُم مرَّة مثلًا، بلِ المرادُ: دوامُ انْتِفاءِ نَصْرِهِم.

دِلالَةُ بِناءِ الفِعْلِ ﴿يُنصَرُونَ﴾ لِما لَم يُسَمَّ فاعِلُهُ:

انْـعِـدامُ نـاصِـرِ الـكُـفّارِ انْعِدامًا مُطْلَقًا

بُنِي الفعلُ ﴿يُنصَرُونَ﴾ مِن قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ لِما لَم يُسَمَّ فاعِلُه؛ للدِّلالةِ عَلى العُموم، أي: لا يَحْصُلُ لَهُم نَصْرٌ أبدًا، لا بِأَنْفُسِهِم، ولا بأحدٍ مِنْ غَيْرِهِم أيًّا كانَ[2]، وفي هَذا دليلٌ عَلى فُقْدانِ كُلِّ أعوانِ النَّصر الذّاتيَّة والخارجيَّة؛ فلا يَنْصُرون أنفُسَهُم ولا يَنْصُرُهم غَيْرُهم.

بَلاغَةُ حَذْفِ جَوابِ الشَّرْطِ:

تَـهْـويـلُ جِـنْـسِ الـعَـذابِ وتَعْظيمُهُ

﴿لَوْ﴾ في قولِ اللّه تَعالى: ﴿لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ﴾ شرطيَّةٌ، وجوابُ الشَّرط محذوفٌ، ونُكْتَةُ ذلك: تَهْويلُ جِنْسِه، فتَذْهَب النَّفسُ كلَّ مَذهبٍ في تَقْديرِه[3].

والتَّقديرُ: (لَو يَعْلَمونَ ذَلك لَما اسْتَعْجَلوا العذابَ، أو لَما كانوا عَلى ما هُم عليه مِن الكُفْرِ والاسْتِهْزاءِ بالرَّسول ﷺ وبالدّين، أو لَرَأَوْا هَوْلًا لَم يُدْرِكوا كُنْهَهُ ولَم يَعْرِفوا حقيقَتَهُ)، أو نحو ذلكَ مِمّا يَحْتَمِلُه المَقامُ ويُجَوِّزُه السّياق.

---

(1) البقاعي، نظم الدُّرَر: 12/ 422.

(2) البقاعي، نظم الدُّرَر: 12/ 422.

(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 83، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 11/ 290، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 70، ومحمد أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4866.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثالث والثلاثون،
سورة طه من الآية 132 إلى سورة الأنبياء الآية 88
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثالث والثلاثون، سورة طه من الآية 132 إلى سورة الأنبياء الآية 88
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 33 ، 804 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-75-4
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 33 : المجلد الثالث والثلاثون، سورة طه من الآية 132 إلى سورة الأنبياء الآية 88.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-75-4
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-1130605 بتاريخ 2024/11/15م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»